ويهجون إذا حرموا ، كأنهم يحملون قيثارة المديح بيمناهم ليطربوا السامع ، فإذا رأوا فيه الصمم والغفلة عن نشيدهم تناولوه بسياط الهجاء ، وكذلك يختارون الدواء لكل علة ، ويجدون القول فى كل ميدان .

وقد قال بشار فى أمير من آل برمك ، يعده بالمدح ويطلب منه الكرم :

فإن تُعْطِنى أُفْرِغْ علَيْكَ مَدَائحى ... وإنْ تـأْبَ لَمْ يضرب علىّ سدادُ
ركابى على حرف وقَلْبى مشيّعٌ ... وما لى بأَرض البَاخِلِينَ بلادُ

وهذه صراحة فى السؤال لم نشهدها فى الأمويين والجاهليين قبلهم ، وطلب لم يعرض له الأجداد من شعرائهم بهذه السهولة وهذا الإلحاف ؛ وذلك لأن المديح يورث الغنى ويكسب الترف ويقتل العدم ، فيقول بشار :

لَمَسْتُ بكفى كفَّهُ أَبْتَغى الغِنَى ... ولَمْ أَدْر أَنَّ الجُودَ مِنْ كفِّه يُعْدِى
فلا أَنا منه ما أَفاد ذوو الغنى ... أَفَدْتُ وأَعدانى فأَتلفتُ ما عندى

وهذان البيتان أعجبا النقاد واستثارا مواطن التقريظ فى كتبهم ، لأن الشاعر يجد فى الجود عدوى تنتقل من الأيدى إلى الأيدى ، فهى عادة تتلف الأموال . والشاعر يصف الممدوح بأنه موضع العطاء ، يصيب القريب والبعيد ماله وسخاؤه ، ويطعم الفقراء ويعيل الضعفاء :

يَسْقُطُ الطَّيْرُ حَيْثُ ينتثر الحَبُّ ... وتُغْشَى مَنَازِلُ الكُرَماءِ
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ... ف ولكن يلذّ طعم العطاء

فالشاعر يهتدى إلى الممدوح كما يهتدى الطير إلى مواقع الحب ، فيغشاه وينزل عنده لينال من سيده نوالا خوفاً ، ولكن طمعاً باللذة وسعياً وراء جمال العطاء ، وكذلك يبين الشاعر أن الممدوحين كانوا يعطون أحياناً عن خوف — كما كنا نقول قبل قليل — وقد تناول بشار فى مدحه إلى هذا معانى القدماء فى